وحدك فى الكون ؟ وما الحال لو أطلق غيرك العنان لشهواتهم ؟

وسُمِّى العقل لُبّاً ، ليشير لك إلى حقائق الأشياء لا إلى قشورها ، ولتكون أبعد نظراً . وأعمق فكراً فى الأمور . فحين يأمرك أن تعطى شيئاً من فضل مالك للفقراء ، فسطحية التفكير تقول : لا كيف أتعب وأعرق فى جمعه ، ثم أعطيه للفقير ؟ وهو لم يفعل شيئاً ؟

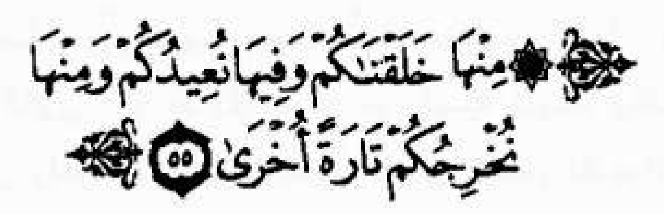
أما حين تتعمق فى فَهْم الحكمة من هذا الأمر تجد أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ قال لك : أعط المحتاجين الآن وأنت قادر حتى إذا ما احتجتَ تجد مَنْ يعطيك ، فقد يصير الغنى فقيراً ، أو الصحيح سقيماً ، أو القوى ضعيفاً ، فهذه سنة دائرة فى الخَلْق متداولة عليهم .

وحين تنظر إلى تقييد الشرع لشهواتك ، فلا تنسَ أنه قيَّد غيرك أيضاً بنفس المنهج وبنفس التكاليف . فحين يقول لك : لا تنظر إلى محارم الناس وأنت فرد فهو فى نفس الأمر يكون قد أمر الناس جميعاً ألاّ ينظروا إلى حرماتك .

وهكذا جعل الخالق عز وجل آلة العقل هذه ، لا لنعربد بها فى الكون ، إنما لنضبط بها الغرائز والسلوك ، ونحرسها من شراسة الأهواء ، فيعتدل المجتمع ويسلَم أفراده .

وإلاَّ فإذا سمحتَ لنفسك بالسرقة ، فاسمح للآخرين بالسرقة منك !! إذن : فمن مصلحتك أنت أنْ يوجد تقنين ينهاك ، ومنهج يُنظِّم حياتك وحياة الآخرين .

والحق سبحانه يقول :



نلحظ هنا أن موسى - عليه السلام - يعرض على فرعون قضايا لا تخصُّ فرعون وحده ، إنما تمنع أنْ يوجد فرعون آخر .

وقوله ﴿مِنْهَا .. ﴿٥٥﴾﴾ [طه] أي : من الأرض التي سبق أنْ قال عنها : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا .. ﴿٥٣﴾﴾ [طه]

ثم ذكر لنا مع الأرض مراحل ثلاث : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه]

وفي آية أخرى يذكر مرحلة رابعة ، فيقول : ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف]

بذلك تكون المراحل أربعة : منها خلقناكم ، وفيها تحيَوْن ، وإليها تُرجعون بالموت ، ومنها نُخرجكم بالبعث .

فقوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ.. ﴿٥٥﴾﴾ [طه] الخلْق قسْمان : خَلْق أولى ، وخَلْق ثانوي ، الخلق الأوليّ في آدم عليه السلام ، وقد خُلِق من الطين أي : من الأرض . ثم الخَلْق الثاني ، وجاء من التناسل ، وإذا كان الخَلْق الأوّلي من طين ، فكل ما ينشأ عنه يُعَدّ كذلك ؛ لأنه الأصل الأول .

ويمكن أن نُوجِّه الكلام توجيهاً آخر ، فنقول : التناسل يتولد من ميكروبات الذكورة وبويضات الأنوثة ، وهذه في الأصل من الطعام والشراب ، وأصله أيضاً من الأرض . إذن : فأنت من الأرض بواسطة أو بغير واسطة .

وإنْ كانت قضية الخَلْق هذه قضية غيبية ، فقد ترك الخالق في كونه عقولاً تبحث وتنظر في الكون ، وتعطينا الدليل على صدْق هذه القضية . فلما حلّل العلماء طينة الأرض وجدوها ستة عشر عنصراً

تبدأ بالأكسـوجين ، وتنتهى بالمنجنيز ، وحـين حلّلوا عناصر الإنسان وجدوها نفس الـعناصر الستـة عشر ، ليـثبـتوا بذلك البحث التـحليلى صدْق قضية الخَلْق التى أخبر عنها الخالق عز وجل .

وقوله : ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ.. (٥٥)﴾ [طه] هذه مرحلة مشاهدة ، فكُلُّ مَنْ يموت منّا ندفنه فى الأرض ؛ لذلك يقول الشاعر :

إنْ سَئِمْتَ الحياةَ فَارْجِعْ إلَى   الأرْضِ تَنَمْ آمناً مِنَ الاوْصَاب[1]

هِـىَ أُمٌّ أحْنَى عَليْكَ مِنَ الام   التـى خَلَّفتْـكَ للإتْعَـــاب

فبعد أن تُنقض بنية الإنسان بالموت لا يسارع إلى مواراته التراب إلا أقرب الناس إليـه ، فترى المرأة التى مات وحـيدها ، وأحب الناس إليها ، والتى كانت لا تطيق فراقه ليلة واحدة ، لا تطيق وجوده الآن ، بل تسارع به إلى أمه الأصيلة (الأرض) .

وذلك لأن الجسـد بعد أنْ فارقـته الروح سـرعان ما يتـحول إلى جيـفة لا تطاق حـتى من أمه وأقـرب الناس إليـه ، أما الأرض فإنـها تحتضنه وتمتصُّ كل ما فيه من أذى .

ومن العجائب فى نَقْض بنية الإنســان بالموت أنها تتم على عكس بنائه ، فعندمـا تكلم الخالق عز وجل عن الخلق الأول للإنســان قال : إنه خلق من تراب ، ومن طين ، ومن حـمـأ مسنون ، ومن صلصـال كالـفخار . وقـلنا : إن هذه كلها أطوار للمـادة الواحدة ، ثم بعـد ذلك ينفخ الخالق فيه الروح ، فتدبّ فيه الحياة .

فإذا ما تأملنا الموت لوجدناه على عكس هذا الترتيب ، كما أنك لو

---

(١) الوصب : الوجع والمرض ، والـجمع أوصاب . والوصب : دوام الوجع ولزومـه . [لسان العرب ـ مادة : وصب] .

بنيتَ عـمارة من عـدَّة أدوار ، فآخر الأدوار بنـاءً أولها هَدْمـاً . كذلك الموت بالنسبـة للإنسان يبدأ بنزع الروح التى وُضعَتْ فـيه آخراً ، ثم يتصلَّب الـجسد و (يشـضب) كالصلصـال ثم يرمّ ، ويُنتن كالحـمأ المسنون ، ثم يتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل باقى العناصر ، فتصير إلى التراب .

ثم يقول تـعالى : ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه] أى : مرة أخرى بالبعث يوم القيـامة ، وهذا الإخراج له نظام خاصّ يختلف عن الإخراج الأول ؛ لأنه سيبدأ بعودة الروح ، ثم يكتمل لها الجسد .

هذه كلها قضايا كونية تُلْقَى على فـرعون علَّها تُثنيه عمَّا هو عليه من ادّعاء الألوهية ، والألوهية تقتضى مألوهاً ، فالإله معبود له عابد ، فكيف يَدَّعى الألوهـية ، وليس له فـى الربوبيـة شىء ؟ فلا يسـتـحق الألوهية والعبادة إلا مَنْ له الربـوبية أولاً ، وفى الأمثال : (اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

الآيات : الامور العجيبة ، كما نقول : فلان آية فى الذكاء ، آية فى الحسن ، آيـة فى الكرم . يعنى : عجـيب فى بابه ، وسبق أنْ قـسّمنا آيات الله إلى : آيات كـونية كـالشـمس والقمـر ، وآيات لإثبات صـدْق الرسُل ، وهى المـعجزات وآيات القـرآن الكريم ، والتى تسمـى حاملة الأحكام .

لكن آيات الله ـ عز وجل ـ كثيرة ولا تُحصى ، فهل المراد هنا أن

فرعون رأى كل آيات الله ؟ لا ؛ لأن المراد هنا الآيات الإضافية ، وهى الآيات التسعة التى جعلها الله حُجّة لموسى وهارون ، ودليلاً على صدْقهما ، كما قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء]

وهى : العصا واليد والطوفان والجراد والقُمَّل[1] والضفادع والدم والسنين والنقص من الثمرات . تلك هى الآيات التى أراها الله لفرعون .

والكلية فى قوله : ﴿ آيَاتِنَا كُلَّهَا .. (٥٦) ﴾ [طه] كلية إضافية . أى : كل الآيات الخاصة به كما تقول لولدك (لقد أحضرتُ لك كل شىء) وليس المقصود أنك أتيتَ له بكل ما فى الوجود ، إنما هى كلية إضافية تعنى كل شىء تحتاج إليه .

ومع ذلك كانت النتيجة ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) ﴾ [طه] كذَّب : يعنى نسبها إلى الكذب ، والكذب قَوْل لا واقعَ له ، وكان تكذيبه لموسى علّة إبائه ﴿ وَأَبَىٰ (٥٦) ﴾ [طه] امتنع عن الإيمان بما جاء به موسى .

ولو ناقشنا فرعون فى تكذيبه لموسى عندما قال : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

لماذا كذبتَ يا فرعون ؟ الحق سبحانه قال : خلقتُ هذا الكون بما فيه ، ولم يَأْت أحد لينقضَ هذا القول ، أو يدَّعيه لنفسه ، حتى أنت يا مَنْ ادعيْتَ الألوهية لم تدَّعِ خَلْق شىء ، فهى - إذن - قضية مُسلَّم

---

(١) القُمَّل : حشرات صغيرة تؤذى الزرع وتضايق الناس . [القاموس القويم ٢/١٣٤] وهو ليس بقمل الرأس أو الجسد المعروف .

بها للخـالق عز وجل لم ينازعه فـيها أحد ، فـأنت ـ إذن ـ كاذب فى تكذيبك لموسى ، وفى إبائك الإيمان به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾

عاش المصـريون قديماً على ضفاف النيل ؛ لذلك يقـولون : مصر هبَة النيل ، حـتى إذا ما انحـسر الماء بذروا البـذور وانتظروها طوال العام ، ليس لهم عمل ينشغلون به ، وهذه الحياة الرتيبة عوَّدتهم على شىء من الكسل ، إلا أنهم أحبُّوا هذا المكان ، ولو قلت لواحد منهم : اترك هذه الأرض لمدة يوم أو يومين يثور عليك ويغضب .

لذلك اسـتغلّ فـرعون ارتـباط قـومه بأرض مـصر ، وحـاول أن يسـتـعـدى هؤلاء الذين يمـثِّـل عليـهم أنـه إلـه ، يسـتـعـديهـم على موسـى وهارون فقـال مقولته هذه ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ [طه]

وهنا ثار القـوم ، لا لألوهيـة فرعـون المهـددة ، إنمـا دفاعـاً عن مـصلحتـهم الاقـتصـادية ، وما يـنتفـعون به علـى ضفـاف هذا النيل المبـارك ، الذى لا يضنّ عليهم فى فـيضانه ولا فى انحـساره ، فكان القوم يسمونه : ميمون الغَدَوات والروحَات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرْى الشمس والقمر ، له أوان .

وهكذا نقل فرعون مجال الخلاف مع موسى وهارون إلى رعيته ،

فأصبحت المسألة بين موسى وهارون وبين رعية فرعون ؛ لأنه خاف من كلام موسى ومما يعرضه من قضايا إنْ فهمها القوم كشفوا زَيْفه ، وتنمَّروا عليه ، وثاروا على حكمه ، ورفضوا ألوهيته لهم ، فأدخلهم طرفاً فى هذا الخلاف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾

فسمَّى فرعون ما جاء به موسى سحْراً ؛ لذلك قال ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] وهذه التسمية خاطئة فى حق موسى ، وإنْ كانت صحيحة بالنسبة لقوم فرعون . فما الفرق ـ إذن ـ بين ما جاء به موسى وما جاء به قوم فرعون ؟

السحر لا يقلب حقيقة الشيء ، بل يظل الشيء على حقيقته ، ويكون السحر للرائى ، فيرى الأشياء على غير حقيقتها ، كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف] فلما ألقى السحرةُ حبالهم كانت حبالاً فى الحقيقة ، وإنْ رآها الناظر حيَّات وثعابين تسعى ، أما عصا موسى فعندما ألقاها انقلبت حية حقيقية ، بدليل أنه لما رآها كذلك خاف منها .

وقوله : ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] أى : نتفق على موعد لا يُخلفه واحد منّا ﴿ مَكَانًا سُوًى

﴿٥٨﴾ [طه] أي : مُسْتوياً ؛ لأنه سيكون مشهداً للناس جميعاً فتستوي فيه مرائي النظارة ، بحيث لا تحجب الرؤية عن أحد . أو (سُوىً) يعني : سواء بالنسبة لنا ولك ، كما نقول : نلتقي في منتصف الطريق ، لا أنا أتعب ولا أنت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾

معلوم أن الحدث يحتاج إلى مُحدث له ، ويحتاج إلى مكان يقع عليه ، ويحتاج إلى زمان يحدث فيه ، وقد عرفنا المحدث لهذا اللقاء ، وهما موسى وهارون من ناحية ، وفرعون وسحرته من ناحية .

وقد حدد فرعون المكان ، فقال ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] بقي الزمان لإتمام الحدث ؛ لذلك حدده موسى ، فقال : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه] ؛ لأن الحدث لا يتم إلا في زمان ومكان .

لذلك لا نقول : متى الله ولا : أين الله ؟ فالحق - تبارك وتعالى - ليس حَدَثاً ، ومتى وأين مخلوقة لله تعالى ، فكيف يحدُّه الزمان أو المكان ؟

وقول موسى ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه] ولم يقُلْ : يوم الاثنين أو الثلاثاء مثلاً ، ويوم الزينة يوم يجتمع فيه كل سُكَّان مصر ، يظهر أنه يوم وفاء النيل ، فيخرجون في زينتهم مسرورين بفيضان النيل وكثرة خيره وبركاته ، وما زالت مصر تحتفل بهذا اليوم .

وكان القاضى لا يقضى بأمر الخراج إلا بعد أنْ يطّلع على مقياس النيل ، فإنْ رآه يُوفى برىِّ البلاد حدَّد الخراج وإلاَّ فلا .

لكن ، لماذا اختار موسى هذا اليوم بالذات ؟ لماذا لم يحدد أى يوم آخر ؟ ذلك ؛ لأن موسى - عليه السلام - كان على ثقة تامة بنصر الله له ، ويريد أن تكون فضيحة فرعون على هذا الملأ ، ووسط هذا الجمع ، فمثَّل هذا التجمع فرصة لا يضيعها موسى ؛ لأن النفس فى هذا اليوم تكون مسرورة منبسطة ، فهى أقرب فى السرور لقبول الحق من أىِّ وقت آخر .

وقوله : ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾ [طه] أى : ضاحين ، ويوم الزينة يمكن أن يكون فى الصباح الباكر ، أو فى آخر النهار ، لكن موسى متمكِّن واثق من الفوز ، يريد أن يتم هذا اللقاء فى وضح النهار ، حتى يشهده الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠)﴾

تولى : أى : ترك موسى وانصرف ليُدبِّر شأنه ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ ..(٦٠)﴾ [طه] الكيد : التدبير الخفى للخَصْم ، والتدبير الخفىّ هنا ليس دليلَ قوة ، بل دليل ضَعْف ؛ لأنه لا قوةَ له على المجابهة الواضحة ، مثل الذى يدسُّ السُّم للآخر لعدم قدرته على مواجهته .

إذن : الكيد دليل ضَعْف ؛ لذلك نفهم من قوله تعالى عن النساء : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ [يوسف] أنه ليس دليلاً على قوة المرأة ، إنما دليلٌ على ضعفها ، فكما أن كيدهُنَّ عظيم ، فكذلك ضعفهُن عظيم .

فمعنى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ ..(٦٠)﴾ [طه] أدار فِكْره على ألوان الكَيْد

المختلفة ، ليختار منها ما هو أنكَى لخَصْمه ، كما جاء فى آية أخرى فى شأنِ نوح عليه السلام ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس]

وكأن الأمر الذى هو بصدده يتطلب وجهات نظر متعددة : نفعل كذا ، أو نفعل كذا ؟ ثم ينتهى من هذه المشاورة إلى رأى يجمع كل الاحتمالات ، بحيث لا يفاجئه شيء بعد أنْ احتاط لكل الوجوه .

فالمعنى : اتفقُوا على الخطة الواضحة التى تُوحِّد آراءكم عند تحقيق الهدف .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [يوسف] . أى : اتفقوا على هذا الرأى ، وأجمعوا عليه ، بعد أن قال أحدهم ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف] ، فكان الرأى النهائى أنْ يجعلوه فى غيابة الجب .

فهُمْ على أية حال سلالة نُبوة ، لم يتأصل الشرُّ فى طباعهم ؛ لذلك يتضاءل شرُّهم من القتل إلى الإلقاء فى متاهات الأرض إلى أهْوَن هذه الأخطار ، أنْ يُلْقوه فى الجُبِّ ، وهذه صفة الأخيار ، أما الأشرار الذين تأصل الشر فى نفوسهم وتعمَّق ، فشرُّهم يتزايد ويتنامى ، فيقول أحدهم : أريد أنْ أقابل فلاناً ، فأبصق فى وجهه ، أو أضربه ، أو أقطَعه ، بل رصاصة تقضى عليه فيُصعِّد ما عنده من الشر .

وبعد ذلك يرجُونَ له النجاة ، فيقولون : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [يوسف]

ثم يقول تعالى فى شأن فرعون : ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ [طه] أى : أتى الموعد الذى سبق تحديده ، مكاناً وزماناً .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن وقائع هذا اليوم ، فيقول :

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم(1) بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾

لما رأى موسى السحرة أراد أنْ يُحذِّرهم ممَّا هم مُقبلون عليه ، وأنْ يعطيهم المناهى التى تمنعهم ، فذكَّرهم بأنَ لهم رباً سيحاسبهم كما تقول لشخص ، تراه مُقْدماً على جريمة ، لو فعلتَ كذا سأُبلغ عنك الشرطة ، وستُعاقب بكذا وكذا ، وتُذكّره بعاقبة جريمته .

﴿ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّه كَذِبًا .. (٦١) ﴾ [طه] افترى أى : جاء بالفرْية ، وهى تعمُّد الكذب ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَاب .. (٦١) ﴾ [طه] يعنى : يستأصلكم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾ [طه] أى : خسر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) ﴾

يبدو أن تخويفَ موسى لهم بقوله : ﴿ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّه كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَاب .. (٦١) ﴾ [طه] قد أثَّر فيهم وأخافهم ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم .. (٦٢) ﴾ [طه] أخذوا يتساومون القَوْل ويتبادلون الآراء .

﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) ﴾ [طه] تحدثوا سراً ، وهذا دليل خوفهم من كلام موسى ، ودليل ما فيهم من استعداد للخير ، لكن انتهى رأيهم إلى الاستمرار فى الشوط إلى آخره .

---

(١) يسحتكم : يهلككم ويستأصلكم . [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾

توقف العلماء طويلاً حول هذه الآية ، لأن فيها قراءتين[1] (إنْ هذان) بسكون (إنْ) والأخرى (إنَّ هذان) بالتشديد .

والقراءة التى نحن عليها قراءة حفص ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ .. ﴿٦٣﴾﴾ [طه] و (إنْ) شرطية إنْ دخلت على الفعل ، كما نقول : إنْ زارنى زيد أكرمته ، وتأتى نافية بمعنى ما ، كما فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ .. ﴿٢﴾﴾ [المجادلة]

فالمعنى : ما أمهاتهم إلا اللائى وَلَدْنهم . كذلك فى قوله تعالى : ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ .. ﴿٦٣﴾﴾ [طه] فالمعنى : ما هذان إلا ساحران ، فتكون اللام فى ﴿لَسَاحِرَانِ .. ﴿٦٣﴾﴾ [طه] بمعنى إلا . كأنك قُلْتَ : ما هذان إلا ساحران .

وتأتى اللام بمعنى إلا ، إذا اختلفنا مثلاً على شىء ، كل واحد منّا يدّعيه لنفسه ، فيأتى الحكم يقول : لَزَيدٌ أحقُّ به ، كأنه قال : مَا هذا الشىء إلا لزيد . إذن : اللام تأتى بمعنى إلا .

وعلى القراءة الثانية بالتشديد (إنَّ هذان لساحران) فإنَّ حرف ناسخ ينصب المبتدأ ويرفع الخبر ، تقول : إنَّ زيداً مجتهدٌ ، أما فى الآية بهذه القراءة : (إنّ هذان لساحران) جاء اسم إنَّ هذان بالرفع

(١) هناك قراءة ثالثة أوردها القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٨٩) قال : « قرأ أبو عمرو « إن هذين لساحران » ورويت عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما وغيرهما من الصحابة وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى وغيرهم من التابعين ، ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدرى ، فيما ذكر النحاس . وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للمصحف » .

بالألف ؛ لأنه مثنى ، والقاعدة تقتضى أن نقول (هذين) .

فكيف يتم توجيه إنَّ المشددة الناسخة وبعدها الاسم مرفوع ؟

قالوا : هذه لغة كنانة إحدى قبائل العرب ، وكان لكل قبيلة لهجتها الخاصة ولغتها المشهورة فيقولون : جعجعة خزاعة ، وطُمْطُمانيّة حِميَر[1] ، وتَلْتلة بَهْراء[2] ، وفحفحة هذيل .. الخ .

ولما نزل القرآن نزل على جمهرة اللغة القرشية ؛ لأن لغات العرب جميعها كانت تصبُّ فى لغة قريش فى مواسم الحج والشعر والتجارة وغيرها ، فكانت لغة قريش هى السائدة بين لغات كل هذه القبائل ؛ لذلك نزل بها القرآن ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أن يكون للقبائل الأخرى نصيب ، فجاءت بعض ألفاظ القرآن على لهجات العرب المختلفة للدلالة على أن القرآن ليس لقريش وحدها ، ليجعل لها السيادة على العرب ، وإنما جاء للجميع .

ومن لهجات القبائل التى نزل بها القرآن لهجة كنانة التى تلزم المثنى الألف فى كل أحواله رَفْعاً ونَصْباً وجراً[3] . وشاهدهم فى كتب النحو قول شاعرهم[4] :

---

(١) الطمطمة : العُجْمة . ورجل طِمْطِم بالكسر ، أى : فى لسانه عُجمة لا يُفصح . وفى صفة قريش : ليس فيهم طُمْطمانية حمير ، شبَّه كلام حمير لما فيه من الألفاظ المنكرة بكلام العجم . [لسان العرب ـ مادة : طمطم] .

(٢) تلتلة بهراء : كسرهم تاء تِفْعلون يقولون : تِعْلمون وتِشْهدون ونحوه . [لسان العرب ـ مادة : تلل] .

(٣) هذا هو القول الأول من الأقوال الستة التى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٣٩٠) لتوجيه قراءة « إنْ هذان لساحران » وقال : هى لغة بنى الحارث بن كعب وزبيد وخثعم وكنانة بن زيد . وقال أبو جعفر النحاس : هذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية ، إذ كانت هذه اللغة معروفة ، وقد حكاها من يرتضى علمه وأمانته .

(٤) نُسب هذا الشاهد لرؤبة بن العجاج ، ونسبه آخرون لأبى النجم الفضل بن قدامة العجلى ، وقيلَ : لبعض أهل اليمن . وانظر شرح شواهد ابن عقيل (ص ٧) ، وشرح شذور الذهب لابن هشام الأنصارى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد (ص ٦٨) .

وَاهًـا لسَلْمى ثُمَّ وَاهًا وَاهَا   يَا ليْـتَ عَيْنَـاهَا لَنَـا وَافَـاهَا
هِــيَ المُنَى لَوْ أنَّنَا نِلْنَـاهَا   ومَوْضع الخُلْخال من قَدمَاهَا
إنَّ أبَاهَــا وأبَــا أبَــاهَــا   قَـدْ بلغَـا فـى المجْدِ غَايتَاهَا

فقال : إنَّ أباها . ولم يقل : إنَّ أبيها ؛ لأنه يُلزِم المثنى الألف .

إذن : لم ينزل القـرآن بلغة قـريش على أنها لغـة سيـادة ، وإنما لأنهـا تنطوى على زُبْدة فصـاحات لغـات الجزيرة كلهـا ، وكانت لـغة قـريش تصـفَّى فى مـواسم الشـعـر والأدب فـى عكاظ وذى المـجنَّة وغـيرها .

نعود إلى قول الحـق تبارك وتعالى : ﴿قَالُوا إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْـرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْـرِهِمَـا .. (٦٣)﴾ [طه] ويبدو أن استعداء فـرعون لقومه على موسى وهارون جاء بنتيـجة ونالتْ حيلته من نفـوسـهم ؛ لذلك يُردِّدون نفس كـلام المـعلم الكـبيـر فـرعـون ، فيتهمون موسى وهارون بالسحر .

وقولهم : ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣)﴾ [طه] طريقتهم المثلى . أى : ما ارتضاه القوم للعيش عليه ، والمذهب والطريق الذى سلكوه . والمراد بالطريقة المثلى التى ساروا عليها أنهم اتخذوا واحداً منهم إلهاً يعبدونه ويأتمرون بأمـره ، تلك هى الطريقة المثلى[1] !! والمثلى : أى الفاضلة مُذكَّرها أمثل .

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾

(١) وقد قال تعالى عـن فرعون أنه قال : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)﴾ [غافر] . وقـال فى آية أخرى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر] .

أى : تنبهوا واشحذوا كل أذهانكم ، وكل فنونكم ، وحركاتكم فى السحر حتى لا يتمكنا من هذين الأمرين : إخراجكم من أرضكم ، والقضاء على طريقتكم المثلى .

وهذا قَوْل بعضهم لبعض ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [طه] فلا يُخفِى أحد فناً من فنون السحر ، وليُقدِّم كُلٌّ منّا ما عنده ؛ لأن عادة أهل الحِرَف أن يوجد بينهم تحاسد ، فلا يُظهر الواحد منهم كل ما عنده مرة واحدة ، أو يحاول أنْ يُخفى ما عنده حتى لا يطلع عليه الآخر ، لكن فى مثل هذا الموقف لا بُدَّ لهم من تضافر الجهود فالموقف حرج ستعمُّ بلواه الجميع إنْ فشلنا فى هذه المهمة .

وقوله : ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. ﴿٦٤﴾﴾ [طه] يعنى : مجتمعين كأنكم يد واحدة ، فهذا أهْيَبُ لكم وأدْخَلُ للرعب فى قلوب خصمكم ، كما أننا إذا جِئْنَا سوياً لم يتمكن أحد من التراجع ، فيكون بعضنا رقيباً على بعض .

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه] أفلح : فاز ، كما فى قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون] وهذا اللفظ مأخوذ من فلح الأرض ومنه الفلاحة ؛ لأن الفلاح إذا شقَّ الأرض أو حرثها ورعاها تعطيه خيرها ، فحركتُه فيها حركة ميمونة مباركة .

لذلك ، لما أراد الحق - تبارك وتعالى - أن يُبيِّن لنا مضاعفة الأجر والثواب على الصدقة وعلى فعل الخير ضرب لنا مثلاً بالزرع ، فقال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعالى تعطى كل هذا العطاء ،

فما بالك بعطاء الخالق لهذه الأرض ؟ لذلك عقب المثل بقوله تعالى :
﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ .. (٢٦١)﴾ [البقرة]

ثم أخذَتْ كلمة الفلاح علماً على كل فلاح ، ولو لم يكن فيه صلة بالأرض : لأن قصارى كل حركات الحياة أن تضمن للإنسان بقاء نَوْعه بالأكل ، والأرض مصدر هذا كله ، فكانت لذلك مصدراً للفوز .

وقوله . ﴿مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾ [طه] أى : طلب العُلو على خَصْمه . لكن هل الفلاَح يكون لمن طلب العلو أم لمن علا بالفعل ؟ طبعاً يكون لمن علا ، إذن : مَنْ عَلاَ بالفعل لا بُدَّ أنْ يشحذَ ذهْنه على أن يطلب العلو على خصمه ، فمهما علا الخصم استعلى عليه أى : طلب العُلو ، إذن : قبل علا استعلى .

ثم يقول الحق سبحانه عن السحرة :

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥)﴾

تُلْقى : ترمى . والمراد أن يرمى واحد منهم ما أعدّه من سحر ، فاختار موسى أنْ يُلْقُوا هم أولاً .

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾

لأنهم إنْ ألقوا سِحْرهم كانت للعصا مهمة حين يلقيها موسى ، فأراد أن يكون للعصا حركة بعد أن تنقلب إلى ثعبان أو حية أو جان ، وإلا لو ألقى هو أولاً ، فماذا سيكون عملها ؟

وقد ألهم الله تعالى سحرة فرعون هذا الأدب فى معركتهم مع

موسى ، فخيَّروه بين أنْ يلقى هو ، أو يلقوا هُمْ ، والله - تبارك وتعالى - يحُول بين المرء وقلبه ، فألهمهم ذلك مع أنهم خصومه ، وأنطقهم بما يؤيد صاحب المعجزة الخالدة ، فقالوا : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [طه]

وقد اختار موسى - عليه السلام - أنْ يُلقى أخيراً ؛ لأن التجربة التى مَرَّ بها فى طوى مع ربه - عز وجل - لما قال له ربه : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [طه]

فلما ألقى موسى عصاه انقلبتْ إلى حيَّة تسعى ورأى هو حركتها ، لكن لم يكُنْ بهذه التجربة شىء تلقفه العصا ، فإذا ألقى موسى أولاً وتحوَّلَتْ العصا حية أو ثعباناً ، فما الفرق بينها وبين حبال السحرة التى تحولتْ أمامهم إلى حيَّات وثعابين ؟

إذن : لا بُدَّ من شىء يُميِّز عصا موسى كمعجزة عن سحْر السحرة وشعوذتهم ؛ لذلك اختار موسى أنْ يُلقى هو آخراً بإلهامَ من الله حتى تلقف عصاه ما يأفكون ، فما يُلقَف لا بُدَّ أن يسبق ما يَلْقُف .

فمن حيث الحركة أمام الناظرين لا فَرْقَ بين عصا موسى وحبال السحرة وعصِيهم ، فكلها تتحرك ، إنما تميزت عصا موسى بأنها تلقف ما يصنعون من السحر ، وتتتبع حبالهم وعصيَّهم ، وتقفز هنا وهناك ، فلها - إذن - عَيْن تبصر ، ثم تلقف سحرهم فى جوفها ، ومع ذلك تظل كما هى لا تنتفخ بطنها مثلاً ، وهذا هو موضع المعجزة فى عصا موسى عليه السلام[1] .

(١) قال محمد بن إسحاق : جعلت - العصا - تتبع تلك الحبال والعصي واحدة واحدة ، حتى ما يرى بالوادى قليل ولا كثير مما ألقوا ، ثم أخذها موسى فإذا هى عصا فى يده كما كانت . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٣٧) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] إذن : فحركة العصىّ والحبال ليستْ حركة حقيقية ، إنما هى تخيُّل ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] فيراها تسعى ، وهى ليست كذلك .

وقد قال تعالى عن هؤلاء السحرة : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف] فجاءوا بأعمال تخيُّلية خادعة بأىِّ وسيلة كانت ، فالبعض يقول مثلاً : إنهم وضعوا بها الزئبق ، فلما حَمِيَتْ عليه الشمس تمدّد ، فصارتْ الأشياء تتلوّى وتتحرك ، فأياً كانت وسائلهم فهى مجرد تخيُّلات ، أمّا الساحر نفسه فيراها حبالاً على حقيقتها . وهذا هو الفرق بين سِحْر السحرة ، ومعجزة عصا موسى .

والسحر يختلف عن الحِيَل التى تعتمد على خفَّة الحركة والألاعيب والخُدَع ، فالسحر أقرب ما يكون إلى الحقيقة فى نظر الرائى ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : هو فَنٌّ يُتعلم ، يعطى التخييل بواسطة تسخير الجنّ ، فهم الذين يقومون بكل هذه الحركات ، فهى ـ إذن ـ ليستْ حيلاً ولا خفة حركة ، إنما هى عملية لها أصول وقواعد تُدرَّس وتُتعلَّم .

والخالق ـ عز وجل ـ حينما يعرض علينا قضية السحر ، وأنه عبارة عن تَسخير الشياطين لخدمة الساحر ، ويجعل لكل منهما القدرة على مضرّة الآخرين : الساحر بالسحر ، والشياطين بما لديهم من قوة التشكّل فى الأشكال المختلفة والنفاذ من الحواجز ؛ لأن الجن خُلقُوا من النار ، والنار لها شفافية تنفذ خلال الجدار مثلاً .

أما الإنسان فَخُلِق من الطين ، والطين له كثافة ، وضربنا مثلاً

لنقرب هذه المسألة ، قلنا : هَبْ أنك تجلس خلف جدار ، ووراء هذا الجدار تفاحة مثلاً وهي من الطينية المتجمدة ، أيصل إليك من التفاحة شيء ؟ إنما لو خلف الجدار نار فسوف تشعر من حلال الجدار بحرارتها . هذه - إذن - خصوصيات جعلها الخالق عز وجل للشياطين فضلاً عن أنهم يرونكُم من حيث لا ترونهم .

لكن ، كان من لُطْف القدير بنا أن جعل لنا ما يحمينا من الشياطين ، فجعل الحق - تبارك وتعالى - الجن حين يتشكَّلون في الأشكال المختلفة تحكمهم هذه الأشكال ، بمعنى لو أن الشيطان تشكَّل لك في صورة إنسان فقد حكمتْه هذه الصورة ، فلو أطلقتَ عليه الرصاص في هذه اللحظة لقتلتَه فعلاً .

لذلك ؛ فالشيطان يخاف منك أكثر مما تخاف منه ، ولا يظهرون لنا إلا ومضة ولمحة سريعة خَوْفاً أن يكون الرائي له على علْم بهذه المسألة فيمسك به وساعتها لن يفلت منك .

وقد أمسك النبي ﷺ شيطاناً وقال[1] : « لقد هممت أن أربطه بسارية المسجد ، يلعب به غلمان المدينة ، إلا أنني ذكرت دعوة أخي سليمان ﴿هبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي .. (٣٥)﴾ [ص] » .

إذن - الحق سبحانه أعطاهم خصوصية التشكّل كما يحبون ، إنما قيدهم بما يتشكَّلون به ، كأنه يقول له : إذا تركتَ طبيعتك وتشكَّلْت بصورة أخرى فارْضَ بأنْ تحكمك هذه الصورة ، وأن يتحكم فيك

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٢٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٥٤١) كتاب المساجد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وتمامه : « إن عفريتاً من الجن تفلت عليَّ البارحة ليقطع عليَّ صلاتي ، فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان (رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) » .

الأضعف منك ، وإلا لَفزّعوا الناس وأرهبوهم ، ولم نسلم من شرِّهم .

وكذلك الحال مع الساحر نفسه ، فلديه بالسحر والطلاسم أن يُسخِّر الجن يفعلون له ما يريد ، وهذه خصوصية تفوق بها قدرتُه قدرةَ الآخرين ، ولديه بالسحر فُرْصة لا تتوفر لغيره من عامة الناس ، فليس بينه وبينهم تكافؤ فى الفُرص .

والله عز وجل يريد لخَلْقه أنْ تتكافأ فُرَصهم فى حركة الحياة فيقول للساحر : إياك أن تفهم أن ما يسَّرته لك من تسخير الأقوى منك ليقدر على ما لا تقدر عليه يفيدك بشىء ، أو أنك أخذتَ بالسحر فرصةً على غيرك ، بل العكس هو الصحيح فلن تجنىَ من سحْرك إلا الضرر والشقاء ، فالسحر فتنة للإنسان ، كما أنه فتنة للجن .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ .. (١٠٢)﴾ [البقرة]

والفتنة هنا معناها أن نختبر استعماله لمدى مَا أعدَّه الله له ، أيستعمله فى الخير أم فى الشر ؟ فإنْ قُلْتَ : أتعلَّم السحر لأستعمله فى الخير . نقول : هذا كلامك ساعة التحمُّل ، ولا تضمن نفسك ساعة الأداء . كما قلنا سابقاً فى تحمُّل الأمانة حين تقبلها ساعة التحمل ، وأنت واثق من قدرتك على أدائها فى وقتها ، ومطمئنٌ إلى سلامة نيتك فى تحمُّلها ، أما وقت الأداء فربما يطرأ عليك ما يُغيِّر نيتك .

وكما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فاخترْنَ التسخير على الاختيار وحَمْل الأمانة ؛ لأنهن لا يضمَنَّ القيام بها .

وقد أعذر الله تعالى إلى السحرة في قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة]

كأن الساحر مآله إلى الكفر ؛ لأنه ابن أهواء وأغيار ، لا يستطيع أن يتحكّم في نفسه فيُسخِّر قوة السحر في الخير ، كما أن الله تعالى إذا أراد أن يُسخِّر القوى للخير : أيُسخِّر الطائع ؟ أم يُسخِّر العاصي ؟ سيُسخِّر الطائع ، والجن الطائع لا يرضى أبداً بهذه المسألة .

إذن : لن يستطيع الساحر إلا تسخير الجن العاصي ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

لذلك تلاحظ أن كل الذين يشتغلون بهذه العملية على سَمْتهم الغضب ، وعلى سحنتهم آثار الذنوب وشُؤْمها ، ينفر منهم مَنْ رآهم ، يعيشون في أضيق صور العيش ، فترى الساحر يأخذ من هذا ، ويأخذ من هذا ، ويبتز الناس ويخدعهم ، ومع ذلك تراه شحاذاً يعيش في ضيق ، ويموت كافراً مُبْعَداً من رحمة الله حتى أولاده من بعده لا يَسْلَمون من شُؤْمه ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ[1] بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [الجن]

كما أن في حياة السحرة لفتة ، يجب أن نلتفت إليها ، وهي أن السحرة الذين يصنعون السحر للناس ويخدعونهم : من أين يرتزقون ؟ من عامة الناس الذين لا يفهمون في السحر شيئاً ، ولو

---

(١) قال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أُضَرّ أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٤٢٨) : « فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً أى خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم » .

أنه أفلح بالسحر لأغنى نفسه عن أنْ تمتد يده إلى هذا ، فيأخذ منه عدة جنيهات ، وإلى هذا يطلب منه أشياء غريبة يُوهمه أن مسألته لن تُحَلّ إلا بها .

ولماذا لم يستخدم سحره في سرقة خزينة مثلاً ويريح نفسه من هذا العناء ، وإنْ قال : كيف وهى أموال الناس والسطو عليها سرقة ، فليذهب إلى الرِّكاز[1] وكنوز الأرض فليست مملوكة لأحد .

نعود إلى سحرة فرعون ؛ أياً كان سحرهم أمِنْ نوع الألاعيب وخِفّة الحركة وخداع الناظرين ؟ أم من نوع السحر الذى علّمته الشياطين من زمن سليمان - عليه السلام - فهو سحر لن يقف أمام معجزة باهرة جاءت على يد موسى لإثبات صدقه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ (٦٧)

أوجس : من الإيجاس ، وهو تحرك شىء مخيف فى القلب لا يتعدّى إلى الجوارح ، فإنْ تعدى إلى الجوارح يتحول إلى عمل نزوعى ، كأن يهرب أو يجرى ، فالعمل النزوعى يأتى بعد الإحساس الوجدانى ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ فِي نَفْسِهِ .. (٦٧) ﴾ [طه]

وقد شعر موسى عليه السلام بالخوف لما رأى حبال السحرة وعِصيّهم تتحول أمام النظارة إلى حيّات وثعابين ، وربما اكتفى

---

(١) الركاز : ما فى الأرض من المعادن فى حالتها الطبيعية . [المعجم الوجيز - مادة : ركز] وذهب أحمد بن حنبل إلى أنه كل ما خرج من الأرض مما يخلق فيها من غيرها ، مما له قيمة مثل : الذهب والفضة والحديد والنحاس والقار والنفط ونحو ذلك . ودليل وجوب الزكاة فى الركاز قوله ﷺ : « فى الركاز الخمس » أى ٢٠٪ راجع : فقه السنة (١/ ٣٥٤ - ٣٥٧) .